انتشار الولاية في المغرب خلال العصر الحديث الباحث

جلدة بوشعيب
طالب باحث بمختبر الدكتوراه، المجال، المجتمع، الثقافة
كلية الآداب والعلوم الانسانية المحمدية، جامعة الحسن الثاني
تحت إشراف: د زليخة بنرمضان ود عبد الرزاق العسري
المغرب

ملخص:

يحاول هذا المقال رصد عوامل انتشار الولاية في المغرب في العصر الحديث، ومن تم حضور الكرامة في المجتمع المغربي، والايمان بجدواها وفعاليتها في تحصيل الخلاص وتوفير الامن والاستقرار لضمان سيادة النظام في البيئة القبلية المختلفة وفي المناطق الحضرية، وبذلك اصبحت الرباطات والزاوايا كيانات تلعب عدة ادوار لا محيد عنها ولا انفكاك منها.

ولسبر اغوارعلل انتشار الولاية ارتباطا بالكرامة وقدرتها على الفعل في الواقع المعيش، نستحضر اهمية التعاضد المنهجي بالاستعانة بعلم النفس والسوسيولوجيا والانتروبولوجيا....

الكلمات المفتاح: الولاية، الصلحاء، الرباط، الزاوية، الكرامة

- المحور الأول: خصائص التصوف في المغرب خلال العصر الحديث
- المحور الثاني: زخم التيار الشعبي
- المحور الثالث: العلل المفسرة للحضور الصوفي
- المحور الرابع: القهر واللجوء للأولياء

تقديم:

ارتكز التصوف على اسس ومبادئ تطورت عبر عدة مراحل تاريخية، وتميزت كل محطة تاريخية بظروفها السياسية والاجتماعية والثقافية الخاصة، فضلا عن اقطابها من رجالات التصوف، الشيء الذي أثر في رسم معالم مبادئها – لكل طريقة صوفية خصوصية ودرجة الاثر الذي تخلفه في المجتمع –.

تنتظم الطرق الصوفية وفق طقوس يلتزم بها من يريد الانتماء لها، ويتكون هيكلها التنظيمي من شيخ الطريقة ومريديه، وهناك آداب خاصة تميز كل طريقة: اساسها الذكر وخلوات التعبد، والغناء الروحي او ما يصطلح عليه بالسماع. كما يصنف المتصوفة الطرقيين بشكل هرمي يبدأ من المنتمين الجدد مرورًا بالمريدين، انتهاءً بشيخ الطريقة. وهناك درجات عقائدية وروحية لمريدي الطرق، يرتقي خلالها المريد روحانياً تسمى الاحوال والمقامات، وفي هذا الصدد يقول الجنيد في اسرار المجاهدة للوصول الى الولاية:

"وينبغي للعاقل الا يتفقد من احدى ثلاث مواطن: موطن يعرف فيه حاله أ متزايد أم منتقص؟ وموطن يخلو فيه من تأديب نفسه من الزامها ما يلزمها، ويتقصى فيه على معرفتها وموطن يستحضر عقله برؤيته التدبير، وكيف تختلف به الاحكام في اناء الليل وأطراف النهار، ولن يصفو عقل لا يصدر الى فهم هذا الحال الاخر الا بإحكام ما يجب عليه من اصلاح الحالين الاولين. فأما الموطن الذي ينبغي له ان يعرف فيه حاله أ متزايد هو أم منتقص؟ فعليه ان يطلب موضع الخلوة، لكي لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريد اصلاحه ثم يتوجه الى موافقة ما الزم من تأدية الفرض، الذي لا يزكو حال قربه الا بإتمام الواجب من الفرائض ثم ينتصب انتصاب العبد بين يدي ربه يريد ان يؤدى اليه ما امر بتأديته، فحينئذ ينكشف له من خفايا النفوس الماورية".[1]

انتقلت تعاليم التصوف من المشرق الى المغرب اثناء رحلات الحج والعلم، وفي العهد الموحدي أصبح وجود الحركة الصوفية اقوى تزامنا مع هجرات القبائل العربية الى المغرب خاصة بني هلال*

فبزغ الفجر الاول من اولياء المغرب الكبار كابي مدين شعيب بن الحسين الانصاري وابي عبدالله امغار، وابي العباس السبتي....، وتمكنت حركة التصوف من ان تغطي المجال المغربي برمته، كما اثرت في مجال التأليف فظهر كتاب التشوف لابن زيات والمقصد الشريف للبادسي.[2]

فما مميزات التصوف المغربي؟ وما العوامل المفسرة لانتشار الايمان بالتمثلات الصوفية بحدة في المجتمع المغربي خلال العصر الحديث؟

1–خصائص التصوف في المغرب خلال العصر الحديث:

ارتبطت ممارسات التصوف في المغرب بطابع اخلاقي –مع الحدر من إطلاق الحكم على عواهنه علما ان هنالك من اتصف بصفات تخدش المروءة –، نتج عنها انتشار التصوف الشعبي ومن تم سيادة بعض العادات والتقاليد الاجتماعية مثل زيارة اضرحة الاولياء، وطلب الغوث والمدد منهم فضلا عن حضور المواسم والرباطات، ثم تقوى دورهم في المجتمع من خلال الصلح بين المتخاصمين وتخفيف المعاناة عن الافراد والجماعات عن طريق الاطعام وتشجيع الصدقة والوقوف في وجه الظلم. لم يكن شيوخ التصوف على هذى رجل واحد، بل تنوعت مشاربهم وطرقهم رغم التزامهم بالمذهب المالكي في الفقه، والاشعرية في العقيدة والميول السني وفق التصور الجنيدي قبل ان تتعزز بالصيغة الغزالية التي ترجمها كتاب احياء علوم الدين.[3]–علما ان هذا الكتاب تعرض للحرق ايام حكم علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي بعد اصطدام هذا الفكر مع الاتجاه الفقهي السائد انداك – تميز الحقل الديني في اواخر الحكم الوطاسي بهيمنة ثلاث اتجاهات: الفقه لمالكي والاتجاه المهدوي والتيار الصوفي. وإذا كانت فكرة المهدوية قد بقيت حبيسة لفترة في جبال الشمال والجنوب ولعل ذلك راجع لتخوف السلطة القائمة من سعي اصحابها الى السلطة، لذلك تم دفعها الى الهوامش، فان التصوف الطرقي قد امتد نحو البادية

وانتشر بين سكان المراكز الحضرية وذلك للحاجة الملحة لأدواره من طرف الحكام سواء تجلى ذلك في السلطة المركزية او شيوخ القبائل والمحكومين.

انتظم المتصوفة بالتدريج ضمن فرق محلية، تستند على فكر شيخ مؤسس (المرابط)، وقد ادى تطور هذه الهياكل الى بزوغ فجر ميلاد مؤسسة الزاوية، التي اصبحت مند القرن الخامس عشر مؤسسة اجتماعية –اقتصادية قائمة على اساس ديني. تركزت هذه الزوايا في العديد من أنحاء البلاد، بل ان التصوف تسرب الى المناطق التي اشتهرت بسيادة الفقه المالكي.

وبالموازاة مع البعد الروحي لهذه المؤسسة الصوفية فإنها لعبت دورا في توطين مجموعة من القبائل البدوية وتحكيم المنازعات، وتوفير الامن للعديد من نقاط التماس ومند منتصف الخامس وبداية القرن السادس عشر، اقتسم اتجاهان صوفيان ينتسبان إلى الشاذلية الفضاء العام. اشتهر احمد زروق بطريقة نخبوية تعتمد على الخاصة، تقوم على وحدة الشريعة والحقيقة متأثرا بالفكر الصوفي الاندلسي خاصة اتجاه ابن عباد الرندي الذي توفي 1390م[4] و دعا الى فتح باب الاجتهاد الفقهي وتنقية العقيدة من الشوائب لذلك غلظ بالراي على الممارسات الدينية الشعبية خاصة اللجوء للأولياء واكد على أن مدخل إصلاح المجتمع يمر عبر التربية والمعرفة، ويقول باعتزال السياسة وطاعة اولياء الامر مالم يخالفوا الشريعة، ومن تم عارض التمرد بدافع تولي واحد من سلالة الرسول الحكم، كما رفض فكرة المهدوية باعتبار مدعيها حسب رايه سوى طامحين الى الحكم.[5]

في مقابل الطريقة الزروقية ذات الصبغة الاصلاحية فهنالك الطريقة الجزولية، التي وضع لبنتها محمد بن سليمان الجزولي الذي مزج بين الصوفية والمهدوية. بحيث تمكنت هذه الطريقة من لعب دورهام في المجال الاجتماعي مند النصف الثاني من القرن الخامس عشر وعلى امتداد القرن السادس عشر قامت الطريقة الجزولية على احتكار الميراث النبوي باعتبار مؤسسها شريفا ينحدر من بيت النبوة، وقطبا يتصل بالإرث الروحي للرسول ومستودع اسراره الباطنية، وهو المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا، وسمي اتباعه بالطريقة المحمدية، وانهم اصحاب الحقيقة الذين ينالون الخلاص الدنيوي والاخروي، ومن تم استطاعت الطريقة استثمار الافكار الدينية والسياسية السائدة في ربوع البلاد للتأثير في ذهنية الناس وكسب موالاتهم وتعاطفهم وبذلك اقاموا شبكة طرقية شديدة الامتدادات، الى ظهور نظام حكم يرتكز على الشرف ولا يستعين بالعصبية بشكل كبير.[6] ولو أننا نعتبر أن العصبية القبلية لم تافل أو يخفت بريقها بالكامل، فلولا مساندة قبائل سوس لما كان لحكم القائم بامر الله اي وجود. وهنا نفتح الباب أمام سؤال الانتقال من العصبية إلى الشرف كالية توصل الى الحكم، علما ان النقاش يجب ان يستحضر المعطى القبلي المادي والجانب الديني المعنوي المتمثل في الشرف لدرجة قياس اي جانب كان له بالغ الاثر في قيام الدولة السعدية بالحدر من الخلاصات النمطية التي تزكي الى حد بعيد دور الشرف.

وترسخ في الواقع تعاطف واخلاص المريدين واتساع دائرة التابعين، ويعد الولي القطب مركز الحلقات التي يدور المحبين في فلكها، ودعت الزاوية بفروعها المبثوثة في كل انحاء المغرب الى حاكمية الله وتطبيق الشريعة بتأويل خاص– بمعنى انها قد تعتمد الاعراف المحلية بقصد خدمة المجتمع والسلطة احيانا– كما سعت الى اعادة ترسيخ الارث النبوي الشريف.

في هذا الصدد تستمد علاقة السلطة قوتها من نموذج ثقافي متوارث يظهر في الارتباط بين الشيخ والمريد في التلقين الصوفي، ويتكرر هذا النموذج بشكل كبير في تراجم الاولياء والصلحاء حتى نضطر الى طرح السؤال: هل هذه التراجم تعكس رواية حقيقية وتاريخية ام ان ذلك يتعلق بعرض نموذج ساد نفوذه مند القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي وهو البحث عن الولاية ومن تم الخلاص؟

غالبا ما ينكشف ميول البعض الى هذا النمط من الحياة في اوقات التغير، خاصة عند الانتقال من المراهقة او بعد دراسة متمعنة لعلوم الظاهر أو عند الارتباط بحرفة، وأحيانا مباشرة قبل الزواج ويضطر البعض الى الانصراف عن الحرفة والابناء ويختار هذا النمط من العيش وقد يرتمي الاخرون في هذه التجربة عقب نوائب او مصائب.

فالمرشح للولاية يبحث عن الشيخ المربي الذي يتعهده بالتربية والتعليم ونقل التجربة الروحية يستغرق ذلك وقتا طويلا يستوجب التنقل وتعهد المشايخ، وبالتالي فالقيم المتبناة التي تميز سلوك الفرد تتغير، وذلك ان السلوك المتعارف عليه يتطلب انخراط الفرد مند شبابه في جماعته واهله بالزواج والتعاطي لحرفة ما، وبالتالي عند الكبر يشغل مكان يتواءم والحياة اليومية. اما المرشح للقداسة فانه يتخلى عن فصيلته ويفك الارتباط بالأماكن التي يثبت فيها الانسان العادي مكانته وقيمته، فليس الاستقرار هو مربط الفرس بل الحركية والدينامية وهذا سبب يأس الاسر من دويهم الذين يفضلون طريق الطرقية.[7]

ينعزل عادة الولي الصوفي في الجبل للعبادة والتأمل والذكر والزهد في مباهج الحياة كمرحلة اولى لكي يتمكن فيما بعد من بسط ونشر تعاليمه ووضع اللبنة الاولى لطريقة تميزه يقتضي الوصول الى مرحلة الولاية التوفر على ثلة من الصفات يجب التفرد بها، بالمقارنة مع عامة الناس واهمها الشرف وبالتالي فهذه الصفة تشكل اداة لها سطوتها المغرية والمتجذرة في المجتمع، وفي حالة غيابها يستوجب حضور العلم او الجنون و القدرة على اظهار الخوارق و الكرامات التي تدخل في عالم الغرابة، بحيث تدمج في المقدس وتأخذ معناها وحضورها بل وتأثيرها في الواقع المعيش، لكنها تبقى غرابة تلقائية اي غرابة الاتجاه الصوفي التي تكون محل تنافس الاشياخ والاولياء، وقد يكون الجهل المطبق ايضا من سمات القداسة، يعتبر كل ذلك بمثابة رأسمال رمزي: الشرف العلم، الغرابة، الجهل يعد من الضروريات للمريد لكي يصل الى مرتبة الولاية، ومن تم يتهيأ له الامر لنشر منهجه على نطاق واسع. يمكن اعتبار الإسلام الصوفي قد تكيف مع القيم والاعراف المحلية وذلك باحتكاكه بالمجتمع القبلي، وما يؤكد ذلك التوزيع الجغرافي للزوايا، وما تفرزه من صلحاء داخل كل دوار وكل قبيلة.[8]

اعتبر إدموند دوتي زيارة الاولياء مسالة قديمة في بلاد البربر تجهل بدقة تفاصيل مراحل تطورها، ومن خلال عمله البحثي توصل الى ان المزارات المنتشرة على الارض وبالرجوع الى معتقدات وعادات الاهالي المحليين تؤكد على قدرة المجتمع على اسلمة المعتقدات الشعبية، ومن تم نشرها والدود عنها فعند زيارة أحد الأولياء لمنطقة ما يتقاطر عليه الاهالي من أجل تقبيل سلهامه وركابه اذا كان معتليا جياده و تقبيل اثار اقدامه، اما اذا كان راجلا يطلبون منه البصق في مأكلهم ومشربهم للتبرك به ويأتي الاهالي بالمرضى لاستشفائهم وبالتالي فالولي الصالح يعتبر كائنا ذو امكانيات خارقة مصدرها البركة الالاهية.

ومن الملاحظ ان اهالي شمال افريقيا يضعون اولياءهم في مكانة اعلى من السلطان بل الاكثر من ذلك تتوفر كل منطقة على صالح مهاب الجانب، تسعى قبيلته الى ان تجعله فوق كل الصلحاء الاخرين بما في ذلك القطب الاعظم سيدي عبد القادر الجيلاني[9]. وتحكي كتب المناقب انه لحظة ولادة عبد السلام بن مشيش أكثر الاولياء تقديسا عند سكان جبالة جاءت عشرات الالاف من النحل من جهات الاربع للأفق لتحط فوق وجهه.[10]

لكن لا يمكن اعتبار حالة تبجيل الاولياء موجودة في جميع مناطق المغرب، فالبدو الرحل لا يحظى الصلحاء عندهم باي احترام بل ينعتونهم بالكسل والخمول، لكن كلمة صالح أصبح لها عند الناس مفهوم الاخر فهي تعني الولي الغبي والاحمق والذي يعاني من الصرع ومن له اشراقات علوية واكوام حجارة والاشجار.[11]

وهكذا نجد الحمقى والبلهاء ينظر إليهم بكثير من الاحترام، فالمسلمون يعتقدون" ان فكر الله موجود في العقول الفارغة لهؤلاء المنسيين" فالبهاليل المرتدون للألبسة الرثة يتجولون ويأكلون من الصدقات. وغالبا ما ينظر اليهم انهم ربانيون يتمتعون باحترام الناس والسلاطين، فمثلا ابو روين* الذي عاش في فاس خلال القرن السادس عشر حيث كان يتنبأ بانتصارات المتعاقبين على الحكم وهزائمهم، اقترح على محمد الشيخ السعدي ان يرجع الي فاس وكان يتنبأ بوفاة شخصيات هامة وغالبا ما تكون تنبؤاته في محلها.

ورغم هالة التبجيل التي حضي بها الصلحاء فلا يخلوا ذلك من ممارساتهم لأعمال غير اخلاقية كالإعجاب الاعمى بالنساء الذي يمكن ان يؤدي الى حرمان الصلحاء من وقارهم وكذلك التصرفات الماجنة المتكررة التي يقوم بها المجاذيب في الساحات العامة[12].

2- زخم التيار الشعبي:

ازدادت اهمية التيار الشعبي لأسباب متعددة: الغزو الاجنبي والفراغ السياسي الداخلي الشيء الذي جعل الزوايا تملا الفراغ، حيث أطرت المغاربة وقادت الجهاد بل أكثر من ذلك أصبح لها دور سياسي واجتماعي اذ اغلبها ساند السعديين وعارض الوطاسيين.

فالأوضاع المتأزمة التي عاشتها البلاد والتي خلخلت المجتمع المغربي من جراء الاحتلال الاجنبي لبعض المناطق الساحلية خاصة ان المغاربة الفوا التعامل التجاري مع الايبيريين، كما تعودوا على تدخل المخزن ضدهم لكن لم يألفوا العيش تحت مظلة الاحتلال الاجنبي هذا الامر هيأ لظهور ادب المناقب وقد اشار الناصري الى ذلك:

"واعلم ان هذا المغرب الاقصى لم يزل بجميع ثغوره وسواحله واقطاره مند الفتح الاسلامي الى المائة التاسعة محفوظ الجوانب من طروق امم الفرنج وغيرهم من اعداء الدين... لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده او طرق ثغر من ثغوره... ولم يكن اهله يتوقعون ذلك"[13] فالاحتلال الاجنبي شكل منعطفا تاريخيا، ادخل المغرب مرحلة الانكماش والانزواء تا ركا المجال للهيمنة الاوربية لتزيد من نفوذها.

ومن بين تجليات التأزم الاجتماعي رباعيات عبد الرحمان المجدوب الذي شكل مثال للبهاليل لم تنحصر اقواله وسلوكاته على منطقة معينة، بل تخطى الحدود واستعمل الجدب صفة وكرامة اختص بها الاولياء دون غيرهم وغلبت عليه التسمية ليعرف بها امام الناس لدلالة على حقيقته الباطنية واكراما من الله له.[14]

ويبقى اهم كتاب في ادب المناقب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن عسكر الشفشاوني، الذي لم يعر بالا للمسائل السياسية الا اذا كانت لها صلة بكرامة ولي ما، فغالبا ما يلجأ الى ذكر الصالحين والمشايخ تبركا وتقربا بهم الى الله.

يغلب على دوحة الناشر سخط الاولياء على الاوضاع خاصة على الحكام الوطاسيين الذين تقاعسوا على الدفاع عن البلاد والعباد وتخلوا عن واجب الجهاد، وركنوا الى مهادنة المحتل و هنا يمكن استحضار موقف محمد بن يحي البهلولي من السلطان احمد الوطاسي الذي هادن البرتغال بعد عقده هدنة مع المسيحيين ببلاد الهبط فتعهد على انه لا يلقى السلطان المذكور، ولا يذهب اليه ولا يقبل منه ما كان والده قد خصص له من جزية اهل الدمة، في المقابل اظهر ابن عسكر مساندة الاولياء للسعديين كموقف الغزواني الرافض للحصار الذي فرضه محمد البرتغالي على مراكش خاصة حصاره لأحمد بن محمد الشريف واخاه محمد الشيخ.[15]

واتى ابن عسكر بهذه الرواية التي تبرز كرامة الغزواني الذي ساند السعديين وساهم في فشل حصار مراكش:

"وقف الشيخ فجاءت كورة رصاص من مدفع وطاسي في صدره تقبت قشابة صوف ووقفت على لحمه. ولم تدخل فيه ثم قبض الشيخ عليها بيده وقال هذه خاتمة ضربهم ثم رجع الى البلد ثم ورد الخبر على الوطاسي في تلك الليلة بان اولاد عمه قد قاموا بفاس ونبذوا دعوته فأصبح راحلا ولم تقم لهم ولا لأهل بيته بعده قائمة، ولله الامر من قبل ومن بعد".[16] هذا بغض النظر عن حقيقة الحدث ومناقشته كرواية تاريخية تستدعي التمحيص، لكن مع ذلك سنضع الكرامات تحت مجهر الدراسة في محور لاحق.

3- العلل المفسرة للحضور الصوفي:

حظي رجال التصوف واقطاب الزوايا بالمغرب بمكانة راقية من قبل الخاصة والعامة، وذلك راجع للواقع المعيش والمهام الحيوية التي قاموا بها، رصدتها كتب المناقب التي وضعت اليد على هالة التبجيل والاحترام خولتها لهم الكرامات التي تسعى الى استعمال تفاصيل الواقع لبناء الممكن والمأمول، فهناك اذن علاقة بين العالم الواقعي والعالم البديل الذي يتوق الناس اليه ويتمنون عيشه كسبيل للخلاص. ففي المغرب خلال العصر الحديث كانت الاوضاع تتسم بالاضطراب من جراء تفاقم الصراعات السياسية خاصة بعد سقوط الوطاسيين،

حدث تحول هام في التاريخ الديني للمجتمع المغربي لصالح نوع من التصوف الشعبي مضمونه الايمان بالقدرية والاستسلام.[17] وتفاقم خطر الكوارث الطبيعية التي تركت بصمتها على الاهالي خاصة من الناحية النفسية والفكرية، ناهيك عن التأثير الاجتماعي والاقتصادي، علاوة على التدخل الاجنبي الايبيري في المناطق الساحلية وما خلفه ذلك من تداعيات على أمن السكان...

هذه الاوضاع المتأزمة دفعت الفرد الى رفض الواقع المعيش والثورة على الطبيعة، دون ايجاد حلول مقنعة ومرضية. في خضم ذلك تفشت مسالة الولاية الروحية فتكاثر عدد الاولياء باعتبارهم الفئة المنقذة للبلاد والعباد، من الظلم والطغيان والانحراف واصلاح ما شاب النفس البشرية من انحرافات، [18] فرغم ان الدين الاسلامي يرفض تقديس الانسان ويقر معنى الوحدانية فان التطور التاريخي للإسلام وتماهي شخص الرسول مع تصورات وممارسة الاولياء من تقشف وزهد و التفرغ التام للعبادة جعل الناس يبجلونهم ويحترمونهم بل الاكثر من ذلك اعتبروهم فوق البشر بفضل الصورة التي ترسخت بفعل العادات والتقاليد وتداول على نطاق واسع ما نسب اليهم من مناقب وكرامات، بل الاكثر من ذلك استغراب الكثير من الرحالة الذين زاروا المغرب، بمن فيهم الدين يتنقلون من اجل تحصيل علوم دنيوية خارجة عن نطاق القضايا الدينية، من انتشار زيارة الاولياء الى درجة ان ليون الافريقي شبههم بأنصاف الهة.[19] وثانيا بسبب الاستثمار السياسي للسلطة الحاكمة لدور الصلحاء في تثبيت شرعية الدولة، وكذا الاستعانة بهم عند الازمات لجلب الاستقرار ومحاربة المتربصين من الداخل والخارج.[20]

ساهمت طبيعة النظام السياسي السائد ببعض القبائل كالأطلس الكبير في جعل بعض الصلحاء يلعبون دورا كبيرا، خاصة ان سلطة الزعماء كانت ضعيفة، فبمجرد ما ينتخبون سرعان ما يدخلون في السنة النهائية من انتدابهم الشيء الذي يحيل على عدم الاستمرارية والاستقرار. كما يعينون من طرف اعضاء ينتمون الى عشائر معادية، في إطار بنية اجتماعية قائمة على التنافس والصراع علما انهم لا تتوفر لديهم مؤسسات ادارية وامنية قارة لذلك يعتمدون على الجانب المعنوي لدى الصلحاء، الشيء الذي قطع الطريق على الاستبداد غير ان هدى المعطى لا يمكن تعميمه على جميع انحاء المغرب.

هذا الواقع فرض ضرورة وجود الية تمكن من تعزيز النظام والمحافظة عليه، خاصة من ناحية تدبير الحكم، تتطلب الانتخابات قاعدة ومسطرة متفق عليها قارة لكنها منعدمة في مثل هذا المجتمع الذي لا يتوفر عل مصالح ادارية من شانها حل المشاكل التي يمكن ان يطرحها التصويت، وبالتالي فالصلحاء هم الذين يوفرون الضمانة الاخلاقية والمجالية التي تمكن العشائر من الاجتماع والقيام بعملية الانتخابات، لان ذلك في الغالب يتم بمقر الزاوية، فهذا المكان حرم لا يجوز التنازع في داخله كما ان الاولياء يحضون بالاحترام ويمتلكون الية الوساطة التي تمكن من القبول في النهاية بنتائج الانتخابات.

كما يشكل الصلحاء حجر الزاوية لنظام الاعراف بإدارة وسط طبيعي متباين من حيث خصائص المناخ بين مناطق متاخمة للصحراء ومراعي المرتفعات الجبلية. جعل ذلك الرعاة يقيمون نظام دقيق يقنن حقوق الرعي – باستعمال متزامن للمراعي و تأجيل استغلال اجودها – وكذا اقامة حدود زمانية فصلية ومكانية.

تضطر جل القبائل للاتجار لضمان الاكتفاء المعاشي وذلك لضعف المحصول، علاوة عل الطلب على الملح والسكر او على العتاد والسلاح، علما ان السلطة المركزية تتسم احيانا بالعجز عن فرض ما تستلزمه الحياة الاقتصادية والمواصلات من امن واستقرار. هنا يكون تدخل اسر الصلحاء ملحا فعادة ما يقيمون في موقع ضريح الجد الصالح المؤسس للسلالة. [21]

4–القهر واللجوء للأولياء:

يسود التعلق بالأولياء واللجوء إليهم لاستجلاب الخير ودفع الشر بكثرة في الفئات المقهورة من السكان، ويتفشى خصوصا حيث يكثر الجهل والضعف، وقلة ذي اليد امام التسلط والقمع والاستغلال وقسوة الظروف الطبيعة. كل هذه الامور تشكل تهديدا لحياة الانسان،

فالإنسان المقهور الذي تلاطمته امواج الشدة بحاجة الى ولي لقوة احساسه بعجزه وقصور امكانياته على التدافع والمجابهة والمبادرة ويحتاج الى من يحميه ويدود عنه، نظرا لعظمة شعوره بالعزلة والوحدة في مواجهة مصيره المحفوف بالمخاطر، حين يواجه النوائب او المصائب في ذاته او اهله او امنه او غذائه فالصالح قبلة يتجه اليها، ويتخذ نصيرا ومعينا كي يتوسط له لدى العناية الربانية. الشيخ هو ولي الله ومن خلال التقرب منه والتودد له تقضى الحاجات، وتعم الرحمات الالاهية ويتصف بقدرات عظيمة لها اشارات تتمثل في الكرامات.

يعترف الناس عموما بحدوث اشياء خارقة، على ايدي هؤلاء الاولياء تحيل على ما يتصفون به من مميزات مختلفة عن سائر البشر نظرا لقربهم من الخالق ويظهر ذلك بشدة في كتب المناقب لكن لا يمكن القطع بصدقيتها غير انه كرواية تاريخية موجودة ومتكررة لقرون وقرون، ومن بين الكرامات التي تظهر على على ايديهم: اجابة دعوة او احضار وتكثير طعام في زمن الحاجة واخراج ماء في زمن العطش او الحماية من عدو. وكلها بالطبع تحيل على الشدة على النقيض من ضعف الفرد وقصوره وتدل على الوضع الرفيع عوض المهانة والضعة. ومن بين الكرامات المتداولة:

كلام الموتى، المشي على الماء، حديث الجمادات والحيوان، ابراء المرضى، خضوع الحيوان، واستجابة الدعاء، والاخبار ببعض من الغيب واظهار رؤية المكان القسي من وراء حجب، وعدم تأثير السموم...

من الواضح ان هذه الكرامات تجسد اماني الاهالي المغلوبة على امرها في امل الخلاص، من خلال التقرب من الصالح صاحب الخوارق، تلك وسيلة للتوازن النفسي لتجاوز الافاق المسدودة والتهديد الدائم.[22]

خلاصة:

نستخلص ان الاعتقاد في كرامات الاولياء كان سائدا بين عامة الناس وخاصتهم، وانه عكس الذهنية المغربية في العصر الحديث، وهي عقلية امنت بالخوارق كوسيلة للخلاص. لكن الى أي حد حققت اماني المجتمع

لذلك فالتمثل الذي عبرت عنه هذه الكرامات، محض حلم يطوق الى تغيير الواقع واستبداله بواقع مثالي يحمل اماني الجماعة، وان هذه الكرامات حقا تصطدم مع قوانين العقل والفهم العام للدين، لكنها مع ذلك وجدت ترحيبا من مجتمع منهك تسيطر عليه الآفات والندرة والقهر الداخلي والخارجي.

علما ان الاتنوغرافين والانثروبولوجين الذين اهتموا بالموضوع خلصوا في دراساتهم لمجالات محدودة في طرح اعتقد في فعالية البركة والعاروالخاوة والضحية، والولي هو وريث وظيفة قديمة الاصل مهمتها الحد من هيمنة اسلام الحواضر، وبالتالي فالزاوية ترمز الى استقلالية الجماعة التي تعتمد على الاعراف المحلية وتسعى لاستقطاب كل ما هو مقدس وتلعب ادوارا جمة.[23]

كيف يمكننا تحليل مسالة الكرامات

جاء في المنزع اللطيف: "ان اهل السنة اجازوا خرق العادة من لدن الاولياء بظهور على يدهم الكرامات بخلاف المعتزلة واعتبروا ذلك من باب اجابة الدعاء ان ما جاز ان يكون مقدورا لله تعالى جاز وقوعه كرامة للأولياء، وان كل كرامة تظهر على يد ولي، فهي محسوبة على الاقتداء بالأنبياء واتباع شريعتهم الداعية الى الخير والهدى، في مقابل السحر الذي يحرض على الضلال والكفر ".[24] والدليل على اثبات الكرامة ما تواتر عن اصحاب الكهف وما جرى لهم من آيات لا يمكن التغاضي عنها وما هم بأنبياء، وكذلك ما اختصت به مريم من كرامات والخضر و ام موسى عليه السلام.

والقشيري[25] يحدد مالا يمكن ان يتحقق وان يصير كرامة مثل ولادة الانسان بذون ذكر أو أنثى وانقلاب الانسان حيوانا، وما شابه ذلك لكن قد تكون الكرامة بإجابة الدعاء والرؤيا الصالحة[26].والملفت للنظر ان التراث الاسلامي عموما والمغربي خصوصا يستحضر

الكرامات باعتبارها شيئا يحيل على طهارة الروح التي تكافأ في الدنيا بقدرات خارقة. لكن كيف نفسر مشاهد الغزو الايبيري والكوارث الطبيعية المتكررة واستشراء الفقر والظلم والاستبداد في محطات تاريخية متكررة زمانا ومكانا [27]اليس من الاحرى ان توقف الكرامات هذه الاوضاع التي تزلزل النفس البشرية خاصة في بلاد المسلمين؟

وقد فسر عبد الاحد السبتي في كتابه الزطاط وقاطع الطريق كرامة الشيخ حيث عدها بمثابة رد فعل ضد العنف وفي مستوى كرامة السفر ترتبط بامتدادات منهجية تهم اعادة الاعتبار للتصورات في كتابة التاريخ الاجتماعي و اعتبر التصور كجزء من الواقع الاجتماعي اذ يساهم في توجيه الممارسة الاجتماعية.[28] هذا من جهة ومن جهة اخرى ان التصور الذي عبرت عنه هذه الكرامات لتجاوز راهن الازمة جاء غارقا في المثالية والخيال فقد حاول ان يستبدل العالم الواقعي بعالم خيالي، افضل ما يقوم على البطولات الخارقة يظهر بشكل مباشر ما لم يتحقق فعلا من الاماني وما كانت تتطلع اليه الجماعة في هذه الفترة، بمعنى ان كل ما لم تتمكن الجماعة من تحقيقه على المستوى الواقعي كانت تحققه الكرامات على المستوى الخيالي، ومن تم فالكرامات هي في حقيقتها علاج وهمي للذات المصابة بالقلق والتوتر والعجز، ومحاولة التنفيس على المكبوتات الداخلية للفرد. ورغم ان هذه الكرامات تصطدم مع العقل، ومع ذلك استطاعت ان تفرض نفسها داخل المجتمع المغربي لارتباطها الوثيق بالدين، الذي هيأ له المجال لتقبل الاعتقاد في الكرامة الصوفية.[29]

الهوامش:

[1] رسائل الجنّيد، تحقّيق علّي حسن عبد القادر، دار ابو القاسم الجنيد رسائل الجنيد تحقيق علي حسن عبد القادر دار الكتب المصرية القاهرة 1988 ص 72

*انظر ابن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من دوي الشأن الاكبر الجزء السادس دار الفكر بيروت 2000

[2] ابو مدين شعيب ابن حسن الانصاري أصله من حصن قطنيانة من عمل اشبيلية ثم نزل ببجاية واقام بها الى ان اقام بأشخاصه بحضرة مراكش توفي سنة 594هـ ودفن خارج تلمسان تخرج على يده تلاميذ كثر وشهد له بعدة كرامات. وابو عبدالله محمد بن ابي جعفر اسحاق بن اسماعيل ابن سعيد الصنهاجي المعروف بابن امغار من بلاد ازمور يقال من الابدال وابوه ابو جعفر وجده اسماعيل واسلافه بيت خير وصلاح وولاية واشتهر باتباع السنة. ابي العباس السبتي هو احمد بن جعفر الخزرجي ولد بسبتة سنة 524هـ ودفن بباب تغازوت كان الشيخ ابيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان تميز بالخلق الحسن وهناك من عده من الاقطاب واخرون اعتبروه من الاولياء والبعض جعله من المبتدعة انظر ابن زيات التشوف الى رجال التصوف ص209-210و319- 324-452

[3] محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011 ص 253-254

[4] ابن عباد النفزي الرندي، أحد علماء السنة ومن اعلام التصوف من اهل رندة في الاندلس، عاش ما بين 1333 -1390م استقر خطيبا بالقرويين ويعد من أهم منظري الطرق الصوفية الشادلية بالمغرب الاقصى.

[5] محمد نبيل ملين، السلطان الشريف الجدور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب ترجمة عبد الحق الزموري وعادل عبد الله، مركز جاك بيرك، الرباط، 2013 ص 16-18

[6] نفس المرجع ص 19

[7] عبد الله حمودي، الشيخ والمريد النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة يليه مقالة في النقد والتأويل، ترجمة عبد المجيد جحفة دار توبقال للنشر الدارالبيضاء 2010 ص 171

[8] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، دارالطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1991ص 41

[9] عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني ولد في جيلان وراء طبرستان سنة 471هـ ثم انتقل إلى بغداد سنة 488هـ، فاتصل بشيوخ العلم، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب واشتهر، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 28هـ وتوفي بها سنة 561هـ www.islamweb.com 4/07/2024 11H13

[10] ادموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الاسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، ترجمة محمد ناجي بن عمر، افريقيا الشرق الدارالبيضاء 2014 ص 36-39

[11] دموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الاسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، ترجمة محمد ناجي بن عمر، ص 44-54

[12] دموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الاسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، ص 100-105

[13] الناصري، الاستقصا القسم الثاني الجزء الرابع دار الكتاب الدارالبيضاء 1955 ص 109

[14] عبد المجيد القدوري، المغرب واوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، المركز الثقافي العربي 2012ص 87

[15] عبد المجيد القدوري، المغرب واوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ص 89

[16] ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 97

[17] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، ص 39

*محمد ابو الرواين كان هذا الشيخ من عجائب الزمن اشتهر بالتصدق للفقراء عرف بعدة كرامات انظر دوحة الناشر لابن عسكر ص 65

[18] محمد العمراني، كتب المناقب وترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية، قضايا في تاريخ الزوايا، مجلة امل، عدد35، السنة 16 الدار البيضاء 2009 ص 53-54

[19] ادموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الاسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، ص 20

[20] نفسه ص9

[21] ارنست كلينر، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ص48-49

[22] مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء 2005، ص 143-144

[23] عبد الله العروي، الاصول الاجتماعية والثقافية الوطنية المغربية، 1830-1912 تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور المركز الثقافي العربي 2016 ص 181

[24] عبد الحق بن اسماعيل الباديسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد اعراب المطبعة الملكية الرباط 1993 ص 39-41-40

[25] عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري وشهرته القشيري اتقن العلوم الشرعية والحساب تتلمذ على يد ابي علي الدقاق تنبني المذهب الاشعري اشتغل بالتدريس تعرض الى محن كثيرة توفي سنة 465هـ انظر ابراهيم بسيوني الامام القشيري حياته وتصوفه وثقافته مكتبة الآداب القاهرة 1992 ص 9-23

[26] لطائف السنن لابن عطاء الله السكندري تحقيق عبد الحليم محمود دار المعاريف القاهرة 2006ص44

[27] عبد الحق بن اسماعيل الباديسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد اعراب المطبعة الملكية الرباط 1993 ص 39-41-40

[28] عبد الاحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، دار توبقال للنشر الدارالبيضاء 2009، ص 148

[29] محمد العمراني، مكتب المناقب وترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية، قضايا في تاريخ الزوايا، مجلة امل، العدد51 ، مطبعة النجاح الدارالبيضاء، 2009، ص 71-70